الإسلام والعلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والعلم

د. هشام عزمي

مركز براهين للأبحاث والدراسات
Braheen Center for Research and Studies

الإسلام والعلم

تأليف: د. هشام عزمي

مراجعة لغوية: حسين السيد

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٩

مقاس الكتاب: ١٧*٢٤

عدد الصفحات: ١١٢

الترقيم الدولي: ٩-٤٨-٦٥٤٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (مركز براهين)، وإنما بالأحرى عن وجهة نظر المؤلف.

مركز براهين للأبحاث والدراسات

أرقام المبيعات: ٠١٠٦٤٨٠٠٩٤(٠٠٢) – ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)

بريد المبيعات: sales@braheen.com

صفحات المبيعات: braheen_books braheen.bookstore

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of Publisher.

Braheen Center for Research and Studies, Ltd.

عن المؤلف:

طبيب مصري متخصص في التخدير والعناية المركزة الجراحية، حصل على البكالوريوس في الطب في ٢٠٠١ والماجستير في ٢٠١٠ والزمالة المصرية في التخدير في ٢٠١٣ والبورد العربي في التخدير في ٢٠١٤، ويعمل حاليا مدير وحدة العناية المركزة الجراحية في مستشفى كفر الشيخ العام.

يهتم المؤلف بالبحث في ملف الإلحاد منذ حوالي ١٥ عاما، حيث كان من مؤسسي منتدى التوحيد؛ المنتدى الحواري العربي الأول المهتم بملف الإلحاد، كما ساهم في تأسيس مركز براهين وصدر له في ٢٠١٥ عن المركز كتاب (الإلحاد للمبتدئين: دليلك المختصر للحوار بين الإيمان والإلحاد) وفي ٢٠١٦ كتاب (التطور الموجه بين العلم والدين)، ويدير حاليا قسم الإلحاد في مركز الفتح للبحوث والدراسات، وله نشاط واسع في الملف يتنوع بين إلقاء المحاضرات وإعطاء الدورات التدريبية ونشر المقالات والفيديوهات.

مقدمة

في خريف عام ١٩٨٠ اكتسح رونالد ريجان الانتخابات الرئاسية الأمريكية متفوقًا على خصمه جيمي كارتر، وبهذا عاد الجمهوريون إلى صدارة المشهد السياسي وصارت لهم الرئاسة ثم الأغلبية في مجلس الشيوخ للمرة الأولى منذ ربع قرن تقريبًا. ونظرًا لأن التيار المحافظ أو الديني هو الذي كان له الفضل الأول في هذا الفوز الكبير، فقد توقع الجميع حسم المسائل الخلافية في هذا الوقت بين المحافظين والليبراليين، وأبرزها قضية الإجهاض.

بعد شهور قليلة من تولي ريجان منصبه تشكلت لجنة قضائية من مجلس الشيوخ للنظر في التشريعات والقوانين، ومنها انبثقت لجنة فرعية subcommittee للنظر في تشريع الإجهاض بالمنع أو السماح برئاسة السيناتور جون إيست من ولاية كارولينا الشمالية، واستمعت اللجنة على مدار شهور أبريل ومايو ويونيو ١٩٨١ لعدد كبير من العلماء والمحامين وعلماء الأخلاق والناشطين السياسيين من الطرفين، وكانت تهدف إلى تشريع متى تبدأ حياة الطفل: من لحظة إخصاب البويضة أم بعد ذلك؟

في صباح الأربعاء ٢٠ مايو ١٩٨١ تقدم للشهادة أمام هذه اللجنة البروفيسور (جيمس نيل James Neel)، رئيس قسم علم الجينات في كلية

الطب بجامعة ميتشجان وعضو الأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا، في كلمته أشار البروفيسور نيل إلى أنه من المستحيل أن نتناول موضوع متى تبدأ حياة الإنسان دون التطرق إلى مقدمة في مفاهيم نظرية التطور، وأن الجنين البشري يمر بعدة مراحل أثناء نموه داخل الرحم، وأن القاعدة العلمية تقول: Ontogeny recapitulates Phylogeny؛ أي أن مراحل نمو الجنين تلخص مراحل تطور الإنسان، فهو يبدأ ككائن وحيد الخلية داخل الرحم ثم يشبه الدودة ثم السمكة ثم السلحفاة ثم الدجاجة ثم الخنزير حتى يصل إلى الإنسان[1]!! وهي نظرية خاطئة وضعها العالم الألماني إرنست هيكل المعاصر لداروين واعتمد فيها على رسومات مزورة وعليها انتقادات قاسية جدًا[2].

المقصود عند القوم أن الجنين لا يظهر أي علامات بشرية إلا في المراحل الأخيرة من نموه، وبالتالي فهو ليس إلا مخلفات تطورية ولا يملك الصفات التشريحية

(1) Testimony of Dr. James Neel, May 20, 1981, in The Human Life Bill: Hearings before the Subcommitte on Separation of Powers of the Committee on the Judiciary, United States Senate, Ninety-Seventh Congress, First Session, on S. 158, a Bill to Provide that Human Life Shall be Deemed to Exist from Conception, April 23, 24; May 20, 21; June 1, 10, 12 and 18. Serial No. J-97–16 (Washington, D.C.: U.S. Government Printing Office, 1982), 77.

(٢) انظر: د. جوناثان ويلز، أيقونات التطور: علم أم خرافة، الفصل الرابع: أجنة هيكل، مركز براهين، الطبعة الثانية، ٢٠١٨، ص١٠٧-١٣٨

والوظيفية التي يملكها البشر، وبالتالي أيضًا لا يصح اعتباره بشرًا من الناحية القانونية ولا يصح أن تكون له الحقوق القانونية للبشر مثل حق الحفاظ على حياته حتى يبلغ المراحل الأخيرة من النمو داخل الرحم. وبناءً على هذا فتشريع الإجهاض في ضوء نظرية التطور على حد تعبير الجراح (جورج كريل George Crile) من ولاية أوهايو في مقال له في الميديكال تريبيون عام ١٩٨٥: لماذا لا نسمح بالإجهاض عندما يكون الجنين ليس أكثر من أحد كائنات الماء المالح؟![1]

طبعًا لدينا في الإسلام منظور مختلف تماما، فلا يجوز إجهاض الجنين بعد نفخ الروح فيه، ولأن نفخ الروح أمرٌ غيبيٌ لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي، فقد ورد في الحديث الصحيح أنه يكون بعد ٤٢ يومًا من حياة الجنين. وهذا طبعا مخالف لما تطرحه نظرية التطور الداروينية بخصوص متى يكون الجنين بشرًا له حق الحياة ولا يجوز الاعتداء على هذا الحق وهذه الحياة ومتى يكون مجرد نفاية من مخلفات الأسلاف السابقين من الديدان والأسماك والبرمائيات والزواحف والثدييات يجوز إجهاضه والقضاء على حياته والتخلص منه.

هذا فيما يتعلق بالاختلاف بين الإسلام والفلسفة المادية فيما يتعلق ببدء الحياة، فماذا عن نهاية الحياة؟

---

(1) George Crile Jr., “When Does the Human Life Begin?” Medical Tribune, March 6, 1985, 22.

في عام ١٩٧٩ كتب البروفيسور الراحل (جوزيف فليتشر Joseph Fletcher) العالم المتخصص في الأخلاقيات الطبية مقالاً ينتقد فيه التعريف الحالي لموت الدماغ بأنه موت المخ بالكامل، مشيرًا إلى أن هؤلاء المحرومين من الوظائف العليا للمخ مثل التفكير والذكاء لا يصح اعتبارهم أشخاصًا بغض النظر عن كون سائر الأعضاء والأجهزة الحيوية تعمل بانتظام، وبغض النظر عن كون عملياتهم الحيوية تعمل بصورة تلقائية، أو على حد قوله: «إذا ذهب المخ cerebrum وظل جذع المخ brainstem أو المخ المتوسط midbrain فقط يحافظ على الوظائف الدورية تعمل، فهؤلاء مجرد أشياء وليسوا أشخاصًا objects not subjects»[1].

واستخدم فليتشر لتأييد وجهة نظره معطيات نظرية التطور الداروينية حيث أشار إلى أن المخ الذي ورثناه من أسلافنا الزواحف هو جذع المخ brainstem الذي يتحكم في الوظائف التلقائية مثل ضربات القلب وضغط الدم والتنفس، والمخ الذي ورثناه من أسلافنا الثدييات هو المخ المتوسط midbrain الذي يتحكم في المشاعر والعواطف، أما المخ المتفرد به الإنسان Homosapien فهو القشرة المخية cerebral cortex التي تتحكم في الوظائف العليا مثل الوعي والتفكير والذكاء والذاكرة، وأن هؤلاء الذين يملكون قشرة مخية سليمة هم الذين يصح اعتبارهم بشرًا.

(1) Joseph Fletcher, Humanhood, Prometheus Books, April 1, 1979, p. 135.

فإذا أصاب القشرة المخية ضرر بالغ أدى إلى موتها فعندها لا يعد الفرد إنسانًا، بل هو مجرد كائن ثديي أو من الزواحف، وليس له أي حقوق قانونية(١).

يقضي التعريف الحالي والمستقر منذ عقود لموت المخ brain death أنه يلزم توقف جميع وظائف المخ عن العمل من جذع المخ حتى مراكز المخ العليا حتى يتم إعلان موت المخ(٢)، لكن في تسعينيات القرن الماضي نشطت دعوات من أطباء وقانونيين لإعادة تعريف موت المخ ليشمل فقط توقف المراكز العليا للمخ، وبالتالي إعادة تصنيف أعداد كبيرة من مرضى الغيبوبة كموتى. أحد الدوافع الرئيسية لهذه الدعوات هو إتاحة عدد أكبر من الأعضاء البشرية للزرع، أو كما تقول إحدى المجلات الطبية البريطانية: «إذا تم تغيير تعريف الوفاة ليعني الخسارة المعتبرة لوظائف المخ العليا، سيكون من الممكن القضاء على حياة المريض (أو لمزيد من الدقة إيقاف قلبه لأنه سيكون أصلاً مصنفًا كميت) عن طريق حقنة سامة ثم إزالة الأعضاء المطلوبة للزرع»(٣).

---

(1) Ibid., pp. 163-164

(2) According to the Uniform Determination of Death Act (UDDA), see Alan D. Shewmon, "'Brainstem Death,' 'Brain Death' and Death: A Critical Re-evaluation of the Purported Equivalence," Issues in Law and Medicine 14, no. 2 (Fall 1998): 125–45.

(3) R. Hoffenbert, et. al., "Should Organs from Patients in Permanent Vegetative State Be Used for Transplantation?" The Lancet 350, no. 9087 (November 1, 1997): 1321.

لكي نفهم سياق هذه الدعوات نحتاج إلى أن ندرك أنه توجد نظرتان مختلفتان تجاه طبيعة الإنسان وتعريف ما هو الإنسان، وأنه ينبني على هذا الاختلاف في وجهتي النظر توابع كبيرة جدًا فيما يتعلق بالمرضى ذوي الإعاقات العقلية. هناك وجهة النظر المادية المحضة التي تنظر إلى الإنسان وعقله على أنه نتاج للمخ المادي لا أكثر وأنه لا وجود للروح، فبالتالي يكون تلف المراكز العليا بالمخ ناقضًا لحقيقة إنسانية الفرد وبشريته. وهناك وجهة النظر الأخرى التي تؤمن بوجود الروح وأن تلف خلايا المخ مهما بلغ لا ينفي عن الإنسان إنسانيته ولا حقيقته. لكن ما يعنينا من هذا الأمر كله ليس سرد أوجه الاختلاف بين النظرتين في القضايا المختلفة، بل هو محاولة فهم لماذا هذا الاختلاف في الأصل، وجوهر الفرق بيننا وبينهم.

الفرق بيننا وبينهم

الفرق بيننا وبينهم

سامح طفل في التاسعة من عمره، تشكو منه والدته كثيرًا لأنه كسول جدًا ولا يستيقظ مبكرًا للذهاب إلى مدرسته. عندما فشلت والدة سامح في أن تدفعه للاستيقاظ مبكرًا والذهاب إلى مدرسته بدون تأخير، توجهت إلى مدرسة الفصل كي تساعدها في ذلك. المدرسة المخضرمة بخبرتها التربوية الطويلة جمعت جميع تلاميذ الفصل وقالت لهم:

سأحكي لكم حكاية عصفور صغير، هذا العصفور كان نائمًا في عشه الصغير؛ العصفور اللطيف قام مبكرًا من نومه وانطلق طائرًا بجناحيه الصغيرين، وبينما هو كذلك لمح دودة صغيرة على الشجرة فنزل إليها وأكلها، وكان سعيدًا جدًا لأنه قام من النوم مبكرًا وطار في السماء مبكرًا وتناول إفطاره مبكرًا، وعاد في نهاية النهار إلى عشه الصغير وكله سعادة وبهجة.

وبعد أن انتهت المدرسة الخبيرة من قصتها توجهت إلى سامح وسألته: أخبرني يا سامح، ما هو الدرس الذي تعلمته من هذه القصة؟

فأجابها سامح بكل برود وسماجة: تعلمت أن الدودة عندما استيقظت مبكرًا أكلتها العصفورة!

...

لا ريب أنك عزيزي القارئ عندما قرأت هذه القصة تعلمت شيئًا مختلفًا بالكلية عن الدرس الذي تعلمه سامح من نفس القصة؛ المفترض في هذه القصة أنها تنمي معنى القيام مبكرًا من النوم والذهاب إلى العمل أو المدرسة، وهو المعنى الذي يؤكده حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لأمتي في بُكورها)[1]. لكن سامح استنبط من القصة المعنى العكسي تمامًا، سامح كان لديه وجهة نظر أخرى، رغم أنه سمع نفس القصة بنفس التفاصيل، لكن منظوره إليها كان مختلفًا غاية في الاختلاف، بل هو العكس تمامًا.

هذا هو الفرق بيننا وبينهم؛ المنظور أو وجهة النظر. نحن عادةً نتلقى نفس المعطيات، لكن منظورنا يختلف، والكثير من سوء الفهم ينشأ بسبب هذا الأمر، اختلاف وجهة النظر بيننا وبينهم، هم يقولون: لا خالق ولا إله ولا غيبيات، بينما نحن نؤمن بالله الخالق العليم الحكيم الخبير. هذا الفرق الجوهري هو أساس النزاع بيننا وبين هؤلاء. فعلى سبيل المثال نجد أنه فيما يتعلق بالتاريخ الطبيعي

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن. (الترغيب والترهيب، للمنذري، تحقيق مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م، ج٢، ص٥٢٩)

ونشأة الكائنات الحية تقف المؤسسات العلمية والأكاديمية في صف نظرية التطور الداروينية بمنتهى القوة بينما يقف قلة من العلماء ضد التطور الدارويني، كيف ذلك؟ إذا كانت المعطيات العلمية المحضة عند الطرفين ليس فيها أي اختلاف، فكيف يختلفون في تفسيرها إلى هذه الدرجة؟

قبل أن نتصدى لإجابة هذا السؤال من الضروري أن نتعرف على مصطلح خطير جدًا، هو الفلسفة المادية. الفلسفة المادية تعني باختصار أنه لا ثمّ إلا المادة، وأنه لا يوجد إله ولا خالق ولا غيبيات، وأن هذا العالم المنظور، عالم الشهادة، عبارة عن نظام مغلق لا يوجد أي شيء وراءه أو خارجه، ولا توجد غيبيات. في الفلسفة المادية لا يوجد مكان لله وخالقيته وأفعاله، باختصار هي الإلحاد في أبلغ صورة. البعض يحلو له أن يستعمل مصطلح الطبيعة أو أمنا الطبيعة كبديل عن الله، لكن الحقيقة أن هذا التعبير لا يعني أن الطبيعة فاعل حقيقي، بل هو مجرد مجاز حقيقته هي الصدفة والعشوائية المحضة، وأنه لا فاعل ولا خالق ولا مدبر!

وبالتالي إذا كان العلم مخلصًا للفلسفة المادية، فمن المنطقي أن تأتي مخرجاته كلها في صالح إنكار الخالق وتأييد الصدفة والعشوائية، وسوف تكون التفسيرات "العلمية" حينئذ وفية ومخلصة للآليات أو الميكانزمات المادية العشوائية، وأفضل تفسير "علمي" هو أفضل تفسير يوظف الآليات المادية العشوائية. العلم المادي

(واسمحوا لي باستعمال هذا المصطلح) في حالتنا هذه يفترض مسبقًا أنه لا إله ولا خالق ولا مدبر، فمن المنطقي جدًا أن تكون كل نتائجه موافقة للإلحاد وإنكار وجود الخالق، وبالتالي فهو من السبل الفعالة لترويج الإلحاد وإنكار الخالق، وهذا يتم طبعًا باسم العلم، والعلم منه براء!

دعونا نتأمل قليلاً هذا الوضع!

العلم المادي (واسمحوا لي ثانية باستعمال هذا المصطلح) ومؤسساته يسيرون على خطى الفلسفة المادية، بمعنى أن نقطة البداية عندهم ليست هي السؤال أو الحياد، بل هي الإجابة، فلديهم إجابة مسبقة على سؤال وجود الخالق، في الحقيقة هي ليست مجرد إجابة مسبقة بل اعتقاد راسخ. هذا الموقف المبدئي يجعل الأمر في حقيقته ليس بحثًا عن الحقيقة، بل سعيًا لتبرير الإلحاد وتسويغه، العلم في هذه الحالة يدور حول أفضل تفسير "مادي" وأحسن آلية "عشوائية"، والهدف هو إيجاد الدليل الصالح للتفسير المادي.

هنا يقفز إلى الذهن مصطلح "التبرير"؛ التبرير هو البحث عن دليل، ليس البحث المتجرد عن الهوى ولا السعي المخلص لأجل الحقيقة، بل هو أن تبدأ بالإجابة الجاهزة لتصل إليها نفسها في النهاية. هو باختصار عدم البحث عن الحقيقة، بل البحث عما يؤيد قناعاتك المسبقة. الدليل في حالة التبرير ليس شيئًا

حياديًا موضوعيًا، بل هو دليل منتقى بعناية وحرص شديدين ليقود الناس إلى الفكرة الجاهزة المسبقة.

طبعًا أنت إذا بدأت بالإجابة الجاهزة كأحد مدخلات العملية العلمية، فسوف تكون عملية معالجة هذه المدخلات عبارة عن تصنيع للدليل أو التبرير الصالح لإقناع الناس بهذه الإجابة الجاهزة التي سوف يجدونها في مخرجات العملية العلمية. وعلى هذا المنوال فإن العلم المادي (واسمحوا لي باستعمال هذا المصطلح للمرة الثالثة) الذي يضع من ضمن مدخلاته الإلحاد وإنكار وجود الخالق، سوف تكون كل مخرجاته ونتائجه في صالح الإلحاد وإنكار وجود الخالق.

لهذا يجيد الملاحدة استغلال العلم المادي (واسمحوا لي للمرة الأخيرة باستعمال هذا المصطلح) للدعوة إلى الإلحاد ونشره وترويجه، فينصبون أنفسهم كهنة للعلم يتكلمون باسم العلم وبلسان العلم، والحقيقة أن العلم بريء منهم ومن سبلهم المعوجة، فالعلم الذي يرفعون رايته هو ذلك الذي لوثته الفلسفة المادية ولطخته بأفكارها وأطروحاتها، أما العلم الذي يتعامل مع الحقائق بموضوعية ودون تحيز فليس له مكان بينهم.

دعونا نفكر قليلاً في هذه السؤال: كيف يمكن للملحدين أن يقنعوا الناس بالإلحاد وعدم وجود خالق بينما كل ما في الكون ونظامه ودقته والأرض والبر

والبحر والإنسان والحيوان والنبات وحتى الجراثيم والحشرات يدل على وجود خالق عليم قدير حكيم خبير؟ الجواب هو التلاعب بالعلم ثم المتاجرة باسمه.

قيل لي ذات يوم إنه لا يوجد أي دليل في هذا العالم قادر على إقناع الملحد بوجود الله، والواقع أن هذا صحيح إلى حد كبير؛ لأن المشكلة ليست في الدليل، بل في الذهنية الإلحادية، في المنظومة العقلية التي تضع كمبدأ أنه لا إله ولا خالق ولا غيبيات! في هذه الحالة الدليل خارج نطاق المناظرة أصلاً، ومدار الحوار كله حول الفلسفة التي اختزلت كل شيء في المادة، التي استبعدت من البداية أي شيء ما خلا المادة ليس لسبب منطقي أو إتباعًا لبرهان عقلي بل على سبيل التحكم فقط لا أكثر. إذا أردنا أن نلخص الفقرات السابقة في كلمات يسيرة سوف تكون هذه الكلمات: الملحد يؤمن بالفلسفة المادية ثم يسعى ليجد لها تبريرًا في العلم ثم يزعم أمام الناس أن إلحاده مبني على العلم.

لهذا يتساءل كثيرٌ من الناس، وربما تكون أنت واحدًا منهم عزيزي قارئ هذه السطور: كيف يختلف العلماء اختلافًا صارخًا بينما المعطيات العلمية لديهم جميعًا واحدة لا اختلاف فيها؟! والإجابة الصادقة الأمينة لتفسير هذه الفجوة بين العلماء المؤمنين والملحدين هي: القناعات المسبقة. الملحد أو العالم الذي يسعى لترويج الإلحاد يبدأ تحليله للمعطيات العلمية بفرضية مسبقة أو قناعة مسبقة أنه

لا يوجد إله، وبالتالي فالمخرج العلمي الذي يعطيه أو النتيجة العلمية التي يقدمها لابد أن تتفق وهذه القناعة المسبقة. وعلى الجانب الآخر العالم الذي يؤمن بالله، أو على الأقل لا يؤمن بأنه لا يوجد شيء وراء هذا العالم، سيكون استنتاجه العلمي مختلفًا بالكلية. هذه الفجوة الواسعة سببها الفعلي ليس المعطيات العلمية المحضة، بل المعطيات الفكرية أو الفلسفية أو العقلية!

الفلسفة المادية في حقيقتها وجوهرها ليست إلا تحكمًا محضًا، يفتقر إلى الدليل والبرهان. هل نحن أحطنا بكل شيء علمًا في هذا العالم واكتملت علومنا في كل المجالات؟ أم ما زال القسم الأعظم من العلوم والمعارف محجوبًا عنا وما زلنا نكتشف كل يوم الجديد في كل فروع العلم بلا استثناء؟

إن كان الأمر كذلك فما الذي يضمن ألا توجد هناك حقائق وراء هذا العالم المادي لا نعلمها ولا ندري عنها شيئًا؟ إن كانت علومنا في هذا العالم المادي قاصرة على أشد ما يكون القصور، فكيف يمكننا أن نجزم بعدم وجود ما يتجاوز هذا العالم المادي نفسه ويتعداه؟

أضف إلى هذا أنه لا يشترط لوجود الشيء أن ندركه بالحواس، فهناك العديد من الأشياء في هذا العالم المادي لا ندركها إلا عن طريق الآلات المساعدة مثل التليسكوبات والميكروسكوبات، وأشياء أخرى عديدة نعرفها من آثارها

كالكهرباء والمغناطيسية والجاذبية. فإن كان الأمر كذلك من وجود أشياء لا ندركها إلا بالواسطة، فما المانع عقلاً من وجود أشياء لا ندركها حتى بدون واسطة ونحتاج فيها إلى حاسة أخرى غير موجودة فينا؟ وإذا كانت حواسنا بهذا العجز والقصور في عالمنا المادي المشاهد، فكيف يستبعد عجزها عن إدراك أشياء فيما وراء هذا العالم المشاهد؟

فالإنصاف يقتضي منا أن نعترف بقصورنا في سبل المعرفة وبوجود حقائق كثيرة لا نعرفها لأجل هذا القصور ووسيلتنا إلى معرفتها ما زالت مفقودة، فإن كان هذا فلندرك أن رفضنا لوجود ما وراء هذا العالم المادي المشاهد هو ضرب من التحكم والتعسف بغير دليل. فإن غاية ما بلغه العلم الطبيعي أنه لم يقم لدينا دليلٌ على وجود ما وراء هذا العالم ولم يقم لدينا دليلٌ على عدم وجوده، ومعلومٌ أن عدم الدليل لا يعني عدم المدلول، وأن عدم وجود الدليل على الشيء لا يعني عدم وجود هذا الشيء في ذاته، بل قد يكون موجودًا لكننا نقصر عن إدراكه والعلم به.

ما الدليل على أنه لا يوجد إلا المادة سوى أنها فرضية افترضناها؟ لكن هل يوجد دليل علمي أو عقلي على صحة هذه الفرضية؟ للأسف لا يوجد!

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومعلوم أن عدم شهادة الحس لا تنفي ثبوت ما لم يشهده. ولو كان ما لم يشهده الإنسان بحسه ينفيه؛ لبطلت المعقولات

والمسموعات، وقد قال سبحانه: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}؛ فإذا كان المكذب بما لم يعلمه بوجه من الوجوه مذمومًا في الشرع، كما هو مخالف للعقل؛ فكيف بالمكذب بما لم يعلمه بحسه فقط؟! وإذا كان عدم العلم ليس علمًا بالعدم؛ فكيف يكون عدم الإحساس علمًا بالعدم؟!»[1].

هذا هو الفرق بيننا وبينهم؛ ليس حول العلم كمعطيات ومشاهدات وتجارب، لكنه حول نقطة البداية نفسها؛ الذهنية المادية التي تقوم بتفسير هذه المشاهدات والتجارب. نحن كمسلمين نؤمن بالله وصفاته وأفعاله لا ننظر للعلم ومعطياته نفس النظرة التي ينظرها الماديون، لذلك لابد أن نعي جيدًا الفرق بيننا وبينهم، ونعي أنه ليس قضية هامشية، بل هو في صميم العلم والانتفاع به، خصوصًا إن كانت نتائج العلم يتم الترويج لها بين المسلمين على أنها تؤيد الإلحاد وتدعو إليه، وصار العلم مطية للانتهازيين من الملاحدة الذين يريدون أن يروجوا بضاعتهم الكاسدة على ضعاف العقول وقصيري النظر، فيقال لهم بمنتهى السماجة إن العلم ينفي وجود الله ويثبت بطلان الأديان ويرسخ الفوضى والعشوائية ويدعم نظرية التطور، فيقع الأغرار في الفخ وهم مساكين خدعتهم زخارف الباطل وزينته! ولله الأمر من قبل ومن بعد!

---

(١) ابن تيمية، مسألة حدوث العالم، تحقيق يوسف بن محمد مروان الأوزبكي المقدسي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص٦٥

العلم والإيمان

العلم والإيمان

بدأ الوحي على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بآية {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[١]، فكان أول تعريف بالله عز وجل لعبده ونبيه هو وصفه بأنه من خلق الخلق، لأن الخلق دليل على الخالق يعرفه ويقر به كل أحد، قال الشيخ عطية سالم: «صفة الخلق هي أقرب الصفات إلى معنى الربوبية؛ ولأنها أجمع الصفات للتعريف بالله تعالى لخلقه»[٢]. وقال البيضاوي: «لما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى، نزل أولاً ما يدل على وجوده، وفرط قدرته، وكمال حكمته»[٣].

فصفة الخلق هي أبرز الصفات التي يعرفها الخلق عن الله عز وجل، وما ذلك إلا لما استقر في العقول والفطر أن الخلق يدل على الخالق. فأنت ترى أن أول آية وصلت السماء بالأرض في أول سورة نزلت من القرآن تذكر الله تبارك وتعالى بالدليل على وجوده، وهو خلقه الذي خلقهم، فلم تصفه باسم الله أو بالذي يحيي ويميت أو غير ذلك، بل تصفه بالذي خلق لما استقر في العقول والأذهان أن الخلق يدل على الخالق، وأن كل مخلوق لابد له من خالق.

---

(١) سورة العلق: آية ١

(٢) أضواء البيان ج٩ ص١٤

(٣) تفسير البيضاوي ج٥ ص٥٠٩

فهذا المبدأ العقلي الفطري، دلالة الخلق على الخالق، أقره القرآن وأقام عليه الكثير من المعاني الإدراكية والإيمانية من وجوب توحيده تبارك وتعالى وعبادته. وحينما أمر الله عباده بالتقوى أمرهم بها لأنه ربهم الذي خلقهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء}(1). وحينما دعا عباده إلى اتباع أمره وشرعه دعاهم إلى ذلك لأنه هو الذي خلقهم، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}(2)، ومثله قوله تعالى: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}(3)، يقول القرطبي: «{أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} أنها مخلوقاته فتستدلوا بها عليه».

تأمل مثلاً قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ

(1) سورة النساء: آية ١

(2) سورة الأعراف: آية ٥٤

(3) سورة يونس: آية ٣

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[١] تجد التأكيد البالغ على أن التفكر في خلق الله يوصل إلى معرفة الله وصدق ما أتى به الأنبياء من الوعيد للكافرين، قال ابن الجوزي: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً، بل خلقته دليلاً عليك وعلى صدق ما أتت به أنبياؤك». فالمؤمنون يتفكرون، وكما يقول الطبري: «فيعتبرون بصنعة الخالق، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا من ليس كمثله شيء، ومن هو مالك كل شيء ورازقه، وخالق كل شيء ومدبره، ومن هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناء والإفقار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة».

ولأن الخلق هو أوضح دلالة على الله وأبرز برهان على ربوبيته كان الأنبياء عليهم السلام يعرفون الناس ربهم بدلالة الخلق، فالله جل وعلا هو الذي خلق، فهذا إبراهيم يعرّف قومه بالله: {قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}[٢]. وهذا موسى يجيب عن سؤال فرعون: {قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[٣]، ويعلق سيد قطب بقوله: «وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته —في حدود ما

(١) سورة آل عمران: آية ١٩٠-١٩١

(٢) سورة الأنبياء: آية ٥٦

(٣) سورة طه: آية ٤٩-٥٠

يطيق– في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار قدرة الله وإبداعه وتدبيره في كل كائن صغير أو كبير، من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان»[١].

فمن أراد الاستدلال على ربوبيته تعالى فلينظر في الخلق، ومن أراد برهان الوحدانية والألوهية ومن أراد معرفة عظمة الله وقدرته وكمال صفاته فليجل بناظريه متأملاً في خلق الله حواليه، ومن أراد أن يعلم فقره وحاجته إلى الله الغني فليتأمل في صفحة الكون ليعلم حاجة المخلوقات إلى خالقها سبحانه، ومن شك في البعث والإحياء بعد الإماتة ففي الخلق ما يزيل شكه أو يزيد يقينه[٢].

يقول ابن القيم: «ومن طرق إثبات الصفات دلالة الصنعة عليها، فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، وعلى حياته، وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيئته، فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزامًا ضروريًا. وما فيه من الإتقان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه، يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه وإحسانه وجوده

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٦، دار الشروق، ج٤ ص٢٣٣٨

(٢) أسماء الله الحسنى الدالة على الخلق والإبداع وإعادة الخلق، أكاديمية أسس للأبحاث والعلوم، سلسلة منشورات أكاديمية أسس للأبحاث والعلوم ٥، دار الخلفاء الراشدين، ج٢ ص١١٣

... فلست ترى شيئًا أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها فهي تدل عقلاً وحسًا وفطرةً ونظرًا واعتبارًا»[1].

العلم يؤدي للإيمان:

يظهر من كل ما سبق أن المخلوقات تدل على خالقها وتدعو للإيمان به وبوحدانيته وربوبيته وألوهيته وكمال صفاته، وأن القرآن يقرر هذه القضية أحسن تقرير ويؤكدها أوضح تأكيد بحيث لا يدع مجالاً للشك أو الارتياب في أن الاستدلال بما في المخلوقات من إبداع ودقة وإحكام وإتقان يدل على الخالق تبارك وتعالى. ومما لا ريب فيه كذلك أن العلم بما في المخلوقات من تصميم وإحكام وإتقان ودقة بالغين يزيد المرء بصيرة وإيمانًا، ومن أبرز أدوات التعرف إلى ما في خلق المخلوقات من إحكام وإبداع العلوم الطبيعية من الفيزياء والكيمياء والأحياء، فهي أدوات تكشف لنا ما في الكون الفسيح وما في الأرض وما في الكائنات الحية خصوصًا الإنسان من آيات باهرة تدل على خالقها وتدعو للإيمان به، كما قال الشاعر:

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٣ ص٣٥٤

تأمل سطور الكائنات فإنها　　من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها　　ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فالاستدلال بالخلق على الخالق طريقة شرعية صحيحة وعقلية صحيحة، فهي شرعية صحيحة لأن القرآن دلّ عليها وبينها وأرشد الناس إليها وهداهم إليها، وهي عقلية صحيحة لأن كون الإنسان كان بعد أن لم يكن ومولودًا ومخلوقًا من نطفة ثم من علقة لم يعلمه الناس من خبر النبي صلى الله عليه وسلم، بل علموه بعقولهم سواء أخبر به النبي أم لم يخبر، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يستدل به ودل عليه واحتج به، فهو دليلٌ شرعيٌ لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته.

والآيات القرآنية في هذا أكثر من أن تعد وتحصى! فالمقصود هنا بيان أن العلم سبيلٌ يؤدي بالمرء للإيمان بالله الخالق كما يقول د. مصطفى محمود: «العلم الحديث يصل إلى الله من خلال الميكروسكوب والمبضع والتلسكوب وتأمل قوانين الذرة والفلك»[١].

ولا نزعم أن هذا هو السبيل الوحيد للاستدلال على وجود الله أو بلوغ الإيمان، فمسالك الاستدلال على وجود الله كثيرةٌ بثيرةٌ، وقد ذكرت طرفًا منها في

---

(١) د. مصطفى محمود، الله، الطبعة السابعة، دار المعارف، ص٧٦

كتابي عن الإلحاد[1]، بل هو سبيلٌ معتبرٌ دل عليه العقل ودل عليه الشرع.

إله الفجوات المعرفية:

من جهة أخرى كان اللاهوتيون النصارى قديما كلما أعياهم تفسير ظاهرة ما أو حادثة ما قالوا إن سبب ظهورها أو وقوعها أو حدوثها هو الفعل الإلهي المباشر المجرد من الأسباب المادية، فقوس قزح سببه أن الله خلقه ليكون علامة على كذا، وفيضان النهر سببه أن الله خلقه لأجل كذا، وكسوف الشمس وخسوف القمر ونزول المطر وغيرها من الظواهر كانت تفسر بإرادة الله وفعله المباشر المجرد عن الأسباب المادية. فلما تطورت العلوم وعرف العلماء أن هناك أسبابًا مادية للكسوف والخسوف والمطر والفيضان وقوس قزح... إلخ، حلت الأسباب المادية محل السبب الإلهي وتزعزعت الثقة بالله، لكن كانت ما تزال هناك ظواهر لم يتمكن العلم من تفسيرها فكانت تفسر بأن الله هو الذي سببها. لكن ظلت العلوم تتقدم وتنمو وتتطور على حساب الله، وكلما اكتشف سبب مادي لظاهرة ما، كانت مكانة الله تتآكل وتضعف عند الناس. فهذا المفهوم الذي يقوم

---

(١) انظر: الإلحاد للمبتدئين: دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد، فصل الأدلة على وجود الله، إصدار مركز براهين.

فيه الله بتفسير الفجوات المعرفية التي لم يملئها العلم ولم تبلغها المعرفة العلمية في هذا الزمان هو المقصود بمفهوم إله الفجوات المعرفية والذي يجعل الله عرضة للنقد والتشكيك مع كل تطور وتقدم للعلوم والمعارف العلمية.

ويعتبر هذا الباب —باب الخلط بين التفسيرات الغائية الإلهية والتفسيرات الكونية الطبيعية— من أعتى أبواب الضلال في فهم الرؤية الإيمانية الصحيحة، فعندنا في الإسلام هذا المفهوم المغلوط غير موجود إطلاقًا لأننا نؤمن بأن الله قد أودع في الأشياء صفاتٍ وخصائص وأسبابًا حقيقية، والله من فوقهم بإرادته ومشيئته يُقدّر ويخلق، فإذا وجدنا لظاهرة ما سببًا كونيًا ماديًا فهذا لا ينقض خالقية الله تبارك وتعالى، بل يؤكدها ويرسخها. فلا شك أن الله عز وجل هو الخالق، وأن الأسباب المادية من خلقه، لكن الله عز وجل جعل للكون نظامًا، وجعل من نظام خلقه أن الأسباب بالفعل مؤثرة بمسبباتها، وكل ذلك يرجع إلى تقدير الله وخلقه، وعليه فالأسباب ومسبباتها من خلق الله عز وجل، والإيمان بقدرة الله لا ينافي الأخذ بالأسباب المادية، فالنبي صلى الله عليه وسلم دخل الغار وشاور الطبيب ولبس الدرع وحفر الخندق ودخل مكة في جوار المطعم بن عدي وهو مشرك وقال: «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس».

الآن عندما ننظر إلى تاريخ العلم في الغرب وننظر كيف كان العلماء الغربيون في الماضي يفسرون الظواهر الطبيعية مثل شروق الشمس وغروبها وحدوث البرق

والرعد وغيرها بأسباب غيبية، وكيف أصبح تفسيرها بالأسباب المادية الطبيعية الآن، يمكننا أن نفهم كيف تشربت قلوب المنكرين للغيب هذه الشبهة الخطيرة. والحقيقة أنه لا تعارض بين الأسباب الغيبية والأسباب المادية، فيجوز أن يكون الشيء الواحد له أكثر من سبب غيبي أو مادي، بالضبط كما نرى أن معظم الظواهر والحوادث التي تقع في العالم لها أكثر من سبب مادي بلا تعارض بينها، فكذلك وجود أسباب غيبية كذلك مع الأسباب المادية لا يفيد التعارض والتناقض إطلاقًا. أذكر أني كنت أناقش عددًا من طلبة الجامعة في هذه المسألة فضربت لهم مثلاً بالطالب الذي يرسب في أحد الاختبارات، قد يكون لهذا الرسوب أسبابًا مادية عديدة مثل أنه لم يستذكر كل دروسه قبل الاختبار وأنه ظل ساهرًا فترة طويلة فبالتالي لم ينل نصيبه من النوم قبل الذهاب للاختبار وأن الاختبار نفسه كان صعبًا أو أسئلته طويلة تحتاج إلى وقت طويل للإجابة وأن وقت الإجابة لم يكن كافيًا... إلخ. فنحن نعزو رسوب هذا الطالب لكل هذه الأسباب المادية ثم لا نرى في تعدد هذه الأسباب أي تعارض أو تناقض ولا يستوجب قبولنا لأي سبب أن ننفي ما عداه من الأسباب، فكيف لو أضفنا إليها بعض الأسباب الغيبية مثل أنه لم يسأل الله التوفيق ولم يطلب منه العون وأنه لم يؤد صلاة الفجر قبل الاختبار وأنه خاطب أمه بكلمات غير مؤدبة وذهب للاختبار وقلبها ساخط عليه... إلخ. فهل تتعارض هذه الأسباب الغيبية مع المادية؟ أليس الأقرب للعقل

أنها لا تتعارض ولا تتناقض ولا ينفي بعضها بعضًا؟

فأين يقع الإشكال إذن؟ يقع الإشكال عندما نتصور أن معرفة الأسباب المادية الطبيعية الكونية ينفي بالضرورة الأسباب الغيبية، كقول عالم الكونيات (شين كارول **Sean Carroll**): «على مدار الخمسمائة عام الماضية، كان تقدم العلم يعمل على انتزاع أدوار الله في العالم. لم يعد مطلوبًا ليظل كل شيء في حالة حركة، أو ليخلق تعقيد الكائنات الحية، أو ليفسر سبب وجود الكون ... من ألفي عام، كان من تمام العقل أن نُدخل الله كتفسير للظواهر الطبيعية، الآن نحن نستطيع أن نفعل أفضل من ذلك»[١]. أو كالمقولة الشهيرة لستيفن هوكينج في كتابه الأخير (التصميم العظيم) والتي طارت بها الصحف والمجلات ومواقع الإنترنت: «الكون ليس بحاجة إلى إله ليخلقه»[٢].

المقصود بهذا أنه في مقابل الفهم الإيماني للظواهر الكونية الذي يراها آيات ودلائل وبراهين على وجود الله وقدرته وحكمته وقيوميته وقاهريته، هناك الفهم

---

(1) Sean Carroll, Does the Universe Need God? available at (last accessed Oct. 2015):
http://preposterousuniverse.com/writings/dtung/
(2) Stephen Hawking: God was not needed to create the Universe
http://www.telegraph.co.uk/news/science/science-news/7976594/Stephen-Hawking-God-was-not-needed-to-create-the-Universe.html

المادي الإلحادي الذي يراها لا تدل على الله، وليست برهانًا على الإيمان والتفكر فيها لا يؤدي إلى اليقين الإيماني، بل ربما العكس! ونحن بحاجة إلى التعرف إلى الرؤية الإلحادية للعلم حتى نكون على بصيرة عند تناول مسائل تتعلق بالنظريات العلمية المطروحة وعلاقتها بالدين.

عندما نفهم الفلسفة الإلحادية في تفسير نشأة الكون وظواهره وتفسير نشأة الحياة وتنوعها، وأنها تدعو إلى إنكار وجود الله وسيادة التفسيرات المادية المحضة، وأن كل هذه الظواهر إنما تمت بدون فاعل بل بالقوانين المادية وحدها، وفي المقابل نفهم الفلسفة الإيمانية في تفسير وجود الكون والحياة وجميع الظواهر الطبيعية، وأنها لا تقوم إلا بفعل فاعل خالق عليم قدير حكيم خبير، وأن الأسباب المادية ليست إلا وسائط لا تعمل إلا بفعل الفاعل، عندما نفهم هاتين الفلسفتين نستطيع أن نميز بينهما، وأن نحذر من بعض الدعاوى التي يطلقها البعض ممن لم ينفذ إلى عمق النزاع بين الفلسفتين، ولم يكن له من العلم والبصيرة ما يمنعه من الوقوع في الخطأ والزلل. عندما يكون المسلم على بصيرة بالرؤية الإيمانية الصحيحة لا يمكنه أن ينخدع بقول بعض العلماء الطبيعيين الذين يحاولون التلفيق بين الدين والعلم بالقول بأن العلم ليس له علاقة بالدين، وأن العلم لا يدل على الله ولا يؤدي للإيمان.

ومن أشهر أصحاب هذا القول فرانسيس كولينز، حيث يقول: «الله خارج

الطبيعة، وبالتالي فالعلم لا يستطيع أن يثبت أو ينفي وجوده»[1]، ونحن لا نزعم أننا جعلنا قضية وجود الله موضوعًا علميًا، لكن التعقيد المشاهد في الكائنات الحية دليل صحيح على وجود الخالق. لكنه ليس كذلك عند كولينز؛ لأن الداروينية قد قامت بتفسير وجود هذا التعقيد بأنه نتيجة للأصل المشترك والانتخاب الطبيعي، وبالتالي لم يعد يجوز أن نستدل بهذا التعقيد على وجود الله وخالقيته![2]

الشاهد أن الخالق عند كولينز مجرد فرضية زائدة لا يحتاجها العلم لتفسير وجود الكون أو وجود المخلوقات، ونحن باستطاعتنا تفسير جميع ظواهر العالم تفسيرًا إلحاديًا دون الحاجة إلى افتراض وجود إله خالق مدبر قيوم. وانتشرت هذه الفكرة للأسف، لدرجة أني قرأت على بعض صفحات التواصل الاجتماعي كلاما لبعض الباحثين العلميين في بلاد المسلمين يدعو فيه إلى تبني فكرة أن العلم محايد لا يدعو إلى الإيمان ولا الإلحاد، وهذه نغمة تتصاعد يومًا بعد يوم بين شباب المسلمين، وبدأ أفرادٌ من هنا وهناك ينتصرون لها ويدافعون عنها. وهل هناك أسوأ من أن يقال لنا إن العلم لا يؤدي إلى الإيمان وأن آيات الله في الكون وجميع المخلوقات في الحقيقة لا تدل عليه وأنه لا يمكن معرفة وجود الله عن طريق تأملها وتدبرها والتفكر فيها؟

---

(1) Francis S. Collins, The Language of God – A Scientist Presents Evidence for Belief, Free Press, New York London Toronto Sydney, July 7 2006, p. 165.
(2) Ibid., pp. 85–86.

هذا مع وضعنا في الاعتبار أن نطاق العلم المادي التجريبي بصورته الحالية لا يشمل وجود الله وسائر الغيبيات كموضوعات خاضعة للعلم، بل نحن في استدلالنا بمعطيات العلم أو المكتشفات العلمية على وجود الله لا نزعم أننا جعلنا قضية وجود الله موضوعًا علميًا يخضع للمجهر أو التليسكوب أو جهاز كشف الإشعاع! بل مقصودنا أن هذه المعطيات العلمية هي في حقيقتها مقدمات تقودنا عبر الاستدلال العقلي السليم إلى وجود الله، فالعلم يبحث في المخلوقات، والمخلوقات تدل على الخالق، فالعلم إذن يدل على الخالق، ليس من خلال الكشف عنه بالأجهزة الإلكترونية الحديثة مثلاً! بل من خلال الاستدلال العقلي السليم. فالبعض قد يطلق عبارة: العلم لا يثبت ولا ينفي وجود الله، ويقصد بها أن قضية وجود الله ليست من موضوعات العلم التجريبي، لأن العلم التجريبي يبحث فيما هو داخل العالم، والله جل جلاله خارج هذا العالم، وهذا حقٌ. إنما يكمن الخطأ إذا سيقت هذه العبارة للوصول بها إلى عدم إمكانية الاستدلال مطلقًا على وجود الله انطلاقًا من المعطيات أو الاكتشافات العلمية، فهذا باطلٌ قطعًا، لأنه يقرر للقطيعة التامة بين العلم والإيمان، بين الخلق والخالق.

فهذا المنظور الإلحادي هو الذي يريد بعض العلماء الطبيعانيين أن يروجوه بين المسلمين زاعمين أنه يحفظ للدين قدسيته وسلامته وصيانته من التشكيك

والاعتراض، وهو في جوهره مناقض للرؤية الإيمانية ومناصر للرؤية الإلحادية. وفي ضوء هذا المنظور يمكننا أن نفهم سر الهجوم العنيف الذي شنه ملاحدة الغرب على البروفيسور (أنتوني فلو Anthony Flew) الذي ترك الإلحاد واعتنق المذهب الربوبي، حتى أنه يقول: «لقد اتهمني رفاقي من غير المؤمنين بالغباء والخيانة وخرف الشيخوخة وكل ما يمكنك تخليه، ولم يقرأ أيهم كلمة واحدة مما كتبته»[1].

فالحقيقة أن الفارق بين الإلحاد والربوبية ليس كبيرًا كما يتصور البعض، بل المذهبان سواءٌ حربٌ على الدين وعلى تعبيد الخلق لرب العالمين. إنما خطيئة فلو الكبرى هي أنه استدل بالعلم على وجود الإله، وأشار إلى ما في قوانين الكون وما في تعقيد الشفرة الوراثية من دلالات على الخالق، وهو انحيازٌ كاملٌ للفلسفة الإيمانية وانقلابٌ عنيفٌ على الفلسفة الإلحادية التي تنكر هذا المسلك. فكان جزاؤه لأجل إتباعه لهذا المسلك عند الملحدين هو تدمير مصداقيته بالكلية واتهامه بالغباء والخيانة وخرف الشيخوخة!

فليت عزيزي القارئ الذي يقرأ هذه الكلمات يتبصر ويستوعب مناط الخلاف ومحور النزاع ومدار الصراع الدائر بين الإيمان والإلحاد، وأن الأمر لا يتعلق فقط بالإيمان بالخالق، بل بطريقة التفكير والعقلية الإيمانية التي تتأمل ظواهر هذا

(1) Wavell, Stuard (19 December 2004), "In the beginning there was something", The Sunday Times (article).

العالم وتستمد منها إيمانها، ويؤدي تدبر هذه الظواهر وتأملها والتفكر فيها إلى زيادة الإيمان في القلب وتقويته. فعن طريق قطع العلاقة بين العلم والإيمان لا ينقطع فقط سبيل الاستدلال بالخلق على الخالق أو الاستدلال بالعلم على الإيمان، بل كذلك سبيل النظر والتفكر والتدبر والتأمل في الكون والحياة والمكتشفات العلمية التي تتجدد يومًا بعد يوم، فبدلاً من أن تصبح بابًا لترسيخ الإيمان في النفوس تصبح سبيلاً إلى الجحود والإنكار.

الفهرس

مقدمة ٦

الفرق بيننا وبينهم ١٣

العلم والإيمان ٢٣

التداخل بين الدين والعلم ٣٩

كروية الأرض ٦٣

المعجزات والعلم ٧٩

الفهرس ١١١

مركز براهين للأبحاث والدراسات
Braheen Center for Research and Studies